قضايا وآراء

أخبار الخليج

العدد (17692) - السنة الحادية والخمسون - الإثنين 18 ربيع الأول 1448هـ - 31 أغسطس 2026م

لماذا تنجح بعض الوساطات وتفشل أخرى في إنهاء الحروب؟

بقلم:
د. علي الدين هلال ○

تُعد الوساطة إحدى الوسائل السلمية لفض المنازعات، ونصت عليها المادة (33) من ميثاق الأمم المتحدة، ويُقصد بها تدخل دولة أو مبعوث دولي في حرب ما؛ لتقريب وجهات النظر من خلال نقل الرسائل بين طرفي النزاع، من أجل الوصول إلى حل ينهي الحرب تمهيداً لتسوية الخلافات بين البلدين. ومن المتفق عليه أن الوسيط يقوم بدوره بموافقة أطراف الحرب، وأن ما يصل إليه من حلول ليس ملزماً لهما قانونياً، وإنما يسعى إلى إقناع طرفي الحرب بأن إيقافها يخدم مصالحهما.

محددات الوساطة: شهد العالم عشرات الوساطات منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، خاصة وأن الحروب لا تنتهي بنصر عسكري حاسم لأحد أطرافها، وإنما بمفاوضات وتسويات عادة ما تتدخل فيها أطراف ثالثة. وحظيت منطقة الشرق الأوسط بنصيب وافر من هذه الوساطات، فكان الكونت السويدي فولك برنادوت، أول وسيط دولي أرسلته الأمم المتحدة للوساطة في قضية فلسطين عام 1948، وأعقبه الأمريكي رالف بانش، بعد الحرب العربية الإسرائيلية الأولى عام 1949. كما قامت المنظمات الإقليمية بالوساطة، مثل دور جامعة الدول العربية في اليمن (1963–1967)، ولبنان (1990–1975)، وسوريا وليبيا بعد عام 2011، وتوسط الاتحاد الإفريقي لإنهاء الحرب الأهلية الإثيوبية عام 2022.

وعلى مستوى الدول الكبرى، توسطت الولايات المتحدة بين مصر وسوريا وإسرائيل بعد حرب 1973، وفي المفاوضات المصرية الإسرائيلية التي أفضت إلى معاهدة السلام عام 1979، وفي حرب البوسنة عام 1995. كما توسطت روسيا بين أرمينيا وأذربيجان عام 2020، والصين بين السعودية وإيران عام 2023.

ونجحت بعض هذه الوساطات في وقف الحرب، بينما فشل بعضها الآخر ولم يحقق هدفه. والسؤال: لماذا؟ ويمكن تفسير ذلك بالرجوع إلى أربع مجموعات من العوامل التالية، مع التأكيد أن كلها تحتل نفس الدرجة من الأهمية:

المجموعة الأولى ترتبط بالوسيط الذي يقبل طرفا الحرب وساطته، باعتباره طرفاً نزيهاً لا ينحاز إلى أي منهما. أضف إلى ذلك، قدرته على بلورة الحوافز، والتحذير من الكوابح للتأثير في سلوك طرفي الحرب، وفهمه لاعتبارات الأمن والسيادة والكرامة للطرفين.

وعندما يكون الوسيط دولة كبرى؛ فإنه يمتلك أدوات الضغط المباشر لتغيير سلوك المتحاربين، ومثال على ذلك، دور الولايات المتحدة في الصراع العربي الإسرائيلي بعد حرب 1973، وفي الوصول إلى اتفاق شرم الشيخ لإنهاء الحرب في قطاع غزة في أكتوبر 2025، والاتفاق الإطاري بين لبنان وإسرائيل في 26 يونيو 2026. وهناك بالطبع شخصية الوسيط أو الوسطاء ومهاراتهم في تقريب وجهات النظر، والبحث عن حلول وصياغات مقبولة للطرفين.

المجموعة الثانية ترتبط بطبيعة الحرب وأسبابها وخلفياتها، فمن المهم عدم خلط الوسيط بين القضايا العاجلة المرتبطة بوقف القتال وإنهاء الحرب، والقضايا الآجلة المتعلقة بأسباب الصراع وجذوره، وأن يتم التعامل مع الأمرين بشكل تدرجي ومرحلي؛ يبدأ بانتهاء القتال، مع وجود نظام للرقابة والتحقق، يلي ذلك تطبيق إجراءات بناء الثقة، ثم عملية تفاوضية للوصول إلى تسويات للصراع، وضمانات تنفيذ طويلة الأجل. وأن تشمل كل مرحلة مؤشرات إنذار مبكر للتنبيه إلى الخروقات المحدودة لوقفها وهي في مهدها، ومعايير للمتابعة والتقييم.

المجموعة الثالثة تتعلق بتوقيت الوساطة، ومدى استعداد طرفي الحرب لإنهاء القتال، إضافة إلى وجود أطراف قد تسعى إلى إفشال الوساطة وعرقلة جهودها. وتزداد فرص نجاح الوساطة عندما يدرك طرفا النزاع أنهما وصلا إلى ما يصفه أساتذة العلاقات الدولية بـ«المأزق الاستراتيجي» أو «المعضلة الاستراتيجية». فهما لا يستطيعان حسم المعركة عسكرياً، في الوقت الذي ارتفعت فيه تكلفتها وأنها اقتربت من لحظة أن تتجاوز قدرتهما على تحملها؛ ومن ثم يبحث كلاهما عن مسار تفاوضي مشرف يحفظ الحد الأدنى من مصالحهما. ومن دون هذا الإدراك قد تقبل الدول جهود الوساطة تكتيكياً لكسب الوقت دون رغبة صادقة في إنهاء الحرب. ويرتبط نجاح الوساطة أيضاً بأهمية تحديد دور الأطراف التي لا تجد مصلحتها في نجاح الاتفاق، وتسعى إلى عدم نجاح تطبيقه.

المجموعة الرابعة تتصل بآليات التنفيذ والرقابة والتحقق، فلا يكفي نجاح الوسيط في الوصول إلى اتفاق بإنهاء الحرب، ولكن يتطلب الأمر وجود آليات للرقابة على تنفيذ بنود الاتفاق والتأكد من التزام الطرفين بما ورد فيه، وذلك من خلال جهة محايدة تملك الإمكانات التقنية والبشرية القادرة على القيام بذلك. فمن دون هذه الرقابة المحايدة؛ يصبح وقف إطلاق النار هدنة قابلة للانهيار وتبادل التُّهم بين الطرفين بخرق بنود الاتفاق.

حالات تطبيقية –1 الحرب الروسية الأوكرانية: فشلت جولات الوساطات المتلاحقة لوقف الحرب الروسية الأوكرانية لأسباب مختلفة. فبالنسبة إلى أول وساطة قامت بها بيلاروسيا وتركيا في مارس وأبريل 2022؛ أي عقب نشوب الحرب مباشرة، برز خطأ الوسطاء في عدم التمييز بين إنهاء الحرب وتسوية جذور الصراع وقضاياه الرئيسية، مثل حياد أوكرانيا، وعدم انضمامها إلى حلف شمال الأطلسي (الناتو)، والضمانات الغربية للحفاظ على أمنها. كما كان هناك عامل آخر؛ وهو أن الحرب كانت لا تزال في بدايتها، وكانت روسيا قد حققت فيها انتصارات إقليمية بارزة.

وفشلت وساطة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب، الذي التقى نظيره الروسي فلاديمير بوتين في ألاسكا، في أغسطس 2025، ثم أرسل مبعوثيه ستيف ويتكوف وجاريد كوشنر إلى موسكو للتباحث مباشرة مع الرئيس بوتين، في ديسمبر 2025، ثم يناير 2026. وكان السبب هو التقلبات في العلاقات بين واشنطن وموسكو، ورفض أوكرانيا وأهم حلفائها الأوروبيين، بريطانيا وفرنسا وألمانيا، المقترحات الأمريكية، ثم جاءت الحرب الأمريكية الإسرائيلية الإيرانية لتصرف أنظار واشنطن والعالم عن الحرب في أوكرانيا.

ويبقى السبب الرئيسي لفشل الوساطات هو نظرة كل من الطرفين إلى طبيعة الصراع وأسبابه، والذي اندلعت جولته الأولى عام 2014. فالقيادة الأوكرانية تريد أن تمارس استقلالها كاملاً، وأن يكون لها حق الانضمام إلى حلف الناتو أو الاتحاد الأوروبي، وترغب في مزيد من الاندماج مع غرب أوروبا. أما القيادة الروسية، فتنطلق نظرتها من الصلة التاريخية والثقافية العميقة بين موسكو وكييف، والتي تعتبر أوكرانيا «روسيا الصغيرة»، وأنها جزء من روسيا يقطنه روس يتحدثون الروسية ويرتبطون بالوطن الأم. وتنطلق أيضاً من حقيقة الجوار الجغرافي بين البلدين، وما يتيحه ذلك من تهديدات للأمن القومي الروسي، وأن موسكو طالما حذرت من أن توسع الناتو شرقاً يمثل تهديداً وجودياً لأمنها.

–2 الحرب الأمريكية الإيرانية: حققت الوساطة الباكستانية، مع حضور قطري في المرحلة الأخيرة منها؛ نجاحاً مؤقتاً في الحرب الأمريكية الإيرانية، بتوقيع الرئيس ترامب مذكرة تفاهم مع طهران في 17 يونيو 2026، والتي نصت على انتهاء الحرب. ولكن سرعان ما انهارت بإبلاغ الرئيس ترامب الكونجرس الأمريكي في 10 يوليو الماضي باستئناف العمليات الحربية ضد إيران بعد انتهاكها لالتزاماتها في الاتفاق الأولي، وإعلان طهران في 18 يوليو عدم الالتزام ببنود الاتفاق رداً على الموقف الأمريكي.

وتمت الوساطة في سياق ازدياد الضغوط على الولايات المتحدة وإيران لإنهاء الحرب، لعوامل داخلية وخارجية. فعلى المستوى الداخلي، ارتفعت تكلفة الحرب وشعر الجمهور في كلا البلدين بوطأة تأثيراتها. وعلى المستوى الخارجي، تفاقمت الآثار السلبية على اقتصادات دول العالم بعد توقف الملاحة البحرية في مضيق هرمز. وأدى هذا وذاك إلى تهيؤ طرفي الحرب لإمكانية وضع نهاية لها.

وقد استطاع الوسطاء تحديد نطاق التفاوض على مجموعة من القضايا العاجلة، وتجنب الإشارة إلى قضايا أوسع مثل برنامج الصواريخ البالستية وعلاقة إيران بحلفائها ووكلائها وسياساتها الإقليمية؛ لكن الوساطة عانت من جوانب قصور أدت إلى انهيارها، فهي لم تتضمن إجراءات للرقابة على تنفيذ بنود الاتفاق الأولي والتزام الطرفين بتطبيقها، كما لم تحدد ما يشكل خرقاً للاتفاق، ولم تشر بشكل واضح إلى «التزامن» أو «التتابع» في تنفيذ التزامات كل طرف، وفتح هذا الباب لكل من الطرفين باتهام الآخر بنقض بنود الاتفاق.

وتزداد أهمية هذا القصور، بالنظر إلى حالة عدم الثقة المفرطة بين واشنطن وطهران، التي نتجت عما يزيد على أربعة عقود من الصراع؛ مما جعل كلا الطرفين يرتاب في نيات الآخر، ويتحوط في عدم إخلاصه في تنفيذ الاتفاق.

ختاماً، يمكن القول إن الوساطة عملية سياسية معقدة، يتطلب نجاحها تضافر عدة عوامل تشمل الوسيط الموثوق به، واختيار التوقيت المناسب، وتحديد نطاق التفاوض، وإدراك طرفي الحرب لحدود القوة وحجم تكلفة استمرار الحرب عليهما وعلى الدول الأخرى، والوصول إلى توافق يوفر لكل من الطرفين إمكانية تحقيق جزء من مطالبه وإعلان الانتصار. وكان ما تقدم من أهم العوامل التي قادت إلى نجاح الوساطة مؤقتاً في الحرب الأمريكية الإيرانية، بينما أدى غياب نظام للرقابة والتحقق من التنفيذ، وعدم ثقة طرفي الصراع في بعضهما بعضاً؛ إلى سرعة انهيارها.

○ أستاذ العلوم السياسية
قي جامعة القاهرة

ليلة قبل العودة إلى المدرسة

بقلم:
نبيلة رجب ○

في السنوات الأولى من مدرسته، كان أصغر أبنائي يطرق باب غرفتي في ليلة واحدة من كل عام، واضعًا يده على بطنه، يقول إن الوجع شديد. الليلة ذاتها تتكرر كل سنة، الليلة التي تسبق أول يوم دراسي. أصبُّ له من غرشة المرقدوش، فيهدأ قليلاً ويظل يتقلَّب في فراشه إلى ما قبل الفجر. في الصباح يذهب إلى مدرسته، ومع انتهاء الدوام يكون الوجع قد انصرف، ليغيب سنة كاملة ويعود في موعده. وكان قلقه يتسرَّب إليّ في تلك الليلة، فأسهر بسهره وأنتظر معه ذلك الصباح.

ظننته في أول الأمر حيلة طفل يشتري يوماً إضافياً في البيت. الطب يقول غير هذا. آلام البطن المتكررة تصيب ما بين 8 و25 بالمئة من الأطفال في سنّ المدرسة، وكثير منها يخلو من سبب عضوي، وتُعدُّ من أكثر أسباب تغيّبهم عن الدراسة، وترتفع بين المصابين بها معدلات القلق. معدة الطفل لسانه الثاني، تنطق بما يعجز لسانه الأول عن قوله.

سألته في إحدى تلك الليالي عمّا يخيفه. جاء جوابه بعيداً عن الدروس والمعلّمين والامتحانات، قال إنه يخشى ألا يجد في فصله الجديد أحدًا يعرفه.

في عالم الطفل، الصديق هو الأمان كله. الكبير ينتقل إلى عمل جديد فتسنده خبرته ومعرفته بأن الغربة أسابيع وتزول. الطفل يفتقر إلى هذه العدّة، ولديه وجه واحد أليف في ساحة تضجّ بمئات الوجوه، فإذا سُحب منه هذا الوجه بقي وحيداً في مكان يعرف كل شيء فيه عدا الجالسين حوله.

توزّع المدرسة طلبتها بحسب الأعداد والطاقة الاستيعابية والتوازن بين المستويات، وهي معايير إدارية سليمة تحفظ انتظام العمل. خريطة الطفل مرسومة بمقياس آخر، اسمٌ واحد يجلس إلى جانبه فيهون عليه الباب والطابور والحصة الأولى. المعايير مكتوبة في الاستمارة، وخريطته تبقى في صدره لا يقرأها أحد.

تمنيتُ يومها لو أن في استمارة التوزيع خانة واحدة يكتب فيها الطفل اسم صديق يريد بقاءه معه. مدرسة تستقبل آلاف الطلبة لا تلاحق أمنيات صغيرة كهذه، فبقيت أمنية أمّ ساهرة.

يقول المثل: الرفيق قبل الطريق. قيل في سفر طويل، ولم يخطر ببال قائله فصلٌ دراسي يقضي فيهً الطفل عامه كله. وأول ما تقع عليه عينه حين يدخله وجوه من حوله لا السبورة أمامه.

الطفل المطمئن في صفه يعطي الدرس انتباهه كله. والطفل القلق يعطيه نصفه، فنصفه الآخر مشغول بمن حوله، هل يقبلونه ومع من يجلس في الفسحة ومن يختاره في اللعب. الدرس واحد في الحالتين، وما يصل منه إلى الطفلين مختلف.

وللمدرسة وجهة نظرها. كانت مدرسته في ذلك الوقت تتعمد تبديل الطلبة بين الفصول كل عام خشية أن تتكوّن شلل مغلقة، فالمجموعة التي تطول صحبتها تضيق عمن حولها، وتصنع لنفسها حدوداً تُقصي بها الغريب عنها، وقد ينشأ من ذلك ما هو أسوأ من الإقصاء. وأرادت لكل طفل أن يخالط الجميع لا فئة واحدة يختارها ويقفل عليها. مقصدٌ أفهمه ولا أعترض عليه، فالطفل الذي يتنقل بين مجموعات يتعلّم مخالطة من يختلف عنه، والذي يبقى سنواته كلها في دائرة واحدة يخرج منها ضيّقها.

والمعلّم الذي يلمح في الأسبوع الأول طفلاً يجلس وحده، ويقرّبه من زميل، يكون قد أعطاه ما جاء يبحث عنه.

وللأم والأب في هذا أثرٌ لا تملكه المدرسة. متى اطمأننا إلى أن الطفل ليس مريضاً، فإبقاؤه في البيت صباح اليوم الأول يريح ليلته ويكبّر خوفه في العام المقبل، فالخوف يتسع بالتجنّب ويضمر بالمواجهة. أخذته في كل مرة إلى باب مدرسته، لم أسخر من شكواه ولم أهوّل عليه، وقلت له إن الوجع سيبقى في البيت ولن يدخل معه الفصل. وعاد في المساء وقد نسي بطنه ونسي الليلة كلها.

فإن تكرّر الوجع ولم يهدأ، فالباب مفتوح عند اختصاصي الإرشاد الاجتماعي في كل مدرسة، وجلسة واحدة معه قد تُخرج من الطفل ما لم يقله في البيت.

عامٌ دراسي جديد سيبدأ، وفي أوله تحية لأبنائنا الذاهبين إلى صفوفهم، ولمعلّمين ومعلّمات يستقبلونهم كل صباح ويحملون عنهم ما لا يُحصى، وللقائمين على تعليمنا في وزارة التربية والتعليم. المدرسة تُهيّئ مقاعدها وكتبها وجداولها، ويبقى على البيت أن يهيّئ الطفل نفسه.

في بيوت كثيرة تمرّ ليلةٌ تسبق أول يوم دراسي. طفلٌ يطرق باب أمّه ويده على بطنه، وبينهما كلامٌ لم يُقل بعد.

○ قانونية وكاتبة بحرينية
rajabnabeela@gmail.com

قضايا الشرق الأوسط بين السياسة والإعلام في الولايات المتحدة

بقلم:
د. جيمس زغبي ○

أبرزت حلقتان حديثتان من البودكاست في الولايات المتحدة الأمريكية، استضاف فيهما نجوم إعلاميون تقدميون مجموعة من السياسيين الديمقراطيين البارزين، الفجوة العميقة الموجودة بين طريقة عمل السياسيين ووسائل الإعلام التقليدية والطريقة التي يتحدث بها كلا الطرفين عن منطقة الشرق الأوسط.

في أواخر الشهر الماضي، استضاف مهدي حسن السيناتور مارك وارنر في برنامجه الصوتي (بودكاست) «Me-hdi Unfiltered»، بينما انضم عضو الكونغرس آدم سميث إلى كريستال بول في برنامجها «Breaking Points». وقد كشف كلا البرنامجين عما يحدث حين يواجه سياسيو المؤسسة التقليدية –الذين لا تحيد نقاط حديثهم المُعدّة مسبقاً عن «الحكمة السائدة» بشأن إسرائيل وفلسطين– محاورين يرفضون التساهل معهم أو تمرير طروحاتهم من دون مساءلة.

ثمة ملاحظتان تجدر الإشارة إليهما. تتعلق الملاحظة الأولى بطبيعة العلاقة التي نشأت بين المؤسسة السياسية الأمريكية ووسائل الإعلام السائدة، بينما تتناول الملاحظة الثانية كيفية انعكاس التطورات الإقليمية على الساحة الأمريكية.

ويمكن رصد هذه العلاقة المتشابكة –التي تتسم بتداخل وثيق ومثير للريبة– بين النخب السياسية والإعلامية في أبهى صورها خلال حفل العشاء السنوي لرابطة مراسلي البيت الأبيض. ففي واشنطن، يعيش معظم السياسيين –سواء كانوا ديمقراطيين ليبراليين أو جمهوريين من تيار الوسط– وشخصيات الإعلام السائد التي تغطي أخبارهم، ويعملون في أماكن متقاربة للغاية. إنهم غالباً ما يسكنون هؤلاء في الأحياء نفسها، ويرسلون أبناءهم إلى المدارس ذاتها، ويرتادون دور العبادة نفسها، كما أنهم يتبادلون العلاقات الاجتماعية فيما بينهم.

وهناك أيضاً ظاهرة «الباب الدوار»؛ إذ يغادر بعض المسؤولين الحكوميين السابقين مناصبهم ليصبحوا مقدمي برامج تلفزيونية أو معلقين يتقاضون أجوراً مرتفعة، بينما يترك بعض الصحفيين وظائفهم لقبول تعيينات حكومية.

وتتجلى هذه المشكلة بوضوح أكبر فيما يتعلق بالتغطية الإعلامية لمنطقة الشرق الأوسط. فرغم أن الرأي العام الأمريكي تجاه القضية الفلسطينية قد تغير بلا شك، إلا أن هذا لا ينطبق على النخب الإعلامية والسياسية.

ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال بيانات استطلاعات الرأي، وعمليات التصويت في الكونغرس، وعدد الانتخابات التي فاز فيها منتقدو إسرائيل، ومئات الملايين من الدولارات التي ضختها الجماعات المؤيدة لإسرائيل بهدف هزيمة من تسميهم «المتطرفين المعادين لإسرائيل» ومحاولة التأثير على الخطاب العام.

لقد كشفت هاتان الحلقتان من البودكاست عن أثر هذه التغيرات بطرق أخرى. فعلى سبيل المثال، عندما تظهر شخصيات سياسية بارزة من كلا الحزبين في برامج تلفزيونية كبرى لمناقشة قضايا الشرق الأوسط، عادةً ما تكون الحوارات مقيدة بتلك القناعات السائدة –والمفتقرة إلى المعرفة الدقيقة– التي يشترك فيها كل من السياسيين ومحاوريهم.

يعود ذلك إلى سببين اثنين – أولاً، لا يكاد يوجد أي من الشخصيات الإعلامية البارزة في الشبكات الكبرى مَنْ يلمّ بتاريخ الشرق الأوسط أو ثقافته أو سياساته. فبالنسبة لمعظم المراسلين، يبدأ تاريخ تلك المنطقة من ذات اليوم الذي كُلِّفوا فيه بتغطية أخبارها.

وحتى أولئك الذين قضوا سنوات في تغطية أحداث الشرق الأوسط، غالباً ما ينظرون إليه من منظور الصراعات التي كُلِّفوا بتغطيتها أو استناداً إلى الإيجازات التي تلقوها من صنّاع السياسات، الذين يفتقرون بدورهم –في الغالب– إلى معرفة مباشرة بالأشخاص المتأثرين بسياساتهم.

إن مجموعة الخبراء الذين تدعوهم الشبكات الاخبارية بانتظام للتعليق والتحليل هم في الغالب مسؤولون حكوميون سابقون أخفقوا في الماضي، ولم يستخلصوا أي دروس من أخطائهم، ولذا يواصلون الترويج للآراء ذاتها التي طبعت مسيراتهم المهنية المخيبة للآمال.

وينطبق الأمر ذاته إلى حد كبير عند النظر في كيفية تعامل الساسة الأمريكيين مع منطقة الشرق الأوسط. فمعظمهم إما يفتقرون إلى المعرفة بالمنطقة وتاريخها، أو أنهم يمارسون ما يمكن تسميته «الجهل المتعمد»؛ أو أنهم لا يرغبون في المعرفة لأن القوالب الجاهزة والمفاهيم السائدة قد خدمت مصالحهم جيداً.

ولماذا تعقيد الأمور؟ فهم يكتفون بمقولات مثل: «إسرائيل هي الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط»، أو «إسرائيل حليف يحمي المصالح الأمريكية»، أو غيرها من الصيغ التي تدور حول فكرة أن «إسرائيل تنشد السلام، بينما لا يريد العرب سوى تدمير إسرائيل».

وبغض النظر عن القضايا الأخرى المتعلقة بالشرق الأوسط التي يناقشها المسؤولون المنتخبون، فإن مثل هذه الأفكار النمطية تشكل الخلفية التي تؤطر تفكيرهم. فهي تمثل قناعات راسخة يشترك فيها السياسيون ووسائل الإعلام على حد سواء.

لذا، عندما وافق كل من السيد «سميث» والسيد «وارنر» على إجراء مقابلات مع «بول» و«حسن»، كان من الواضح أنهما لم يكونا مستعدين لمواجهة أسئلة استجوابية حادة حول قضايا مثل: كيف يمكن للولايات المتحدة الأمريكية الاستمرار في تقديم دعم عسكري متطور لإسرائيل في حين تستخدم الأخيرة هذه المساعدات بما ينتهك القانون الدولي؟ وهل تؤثر ملايين الدولارات –التي تضخها لجان العمل السياسي الكبرى (Super–PACs) المؤيدة لإسرائيل– سلباً على انتخاباتنا؟ أم هل ينبغي ضمان حقوق متساوية للفلسطينيين في إسرائيل/فلسطين؟

لقد ظهرت في كلتا المقابلتين بعض المؤشرات الدالة على تغير المزاج العام تجاه إسرائيل؛ إذ أشار كلا السياسيَّين إلى شعورهما بضغط شعبي كافٍ يدفعهما الى معارضة بعض حزم المساعدات العسكرية المقترحة لإسرائيل والمدرجة ضمن الميزانية الجديدة.

غير أنهما كشفا بعد ذلك عن قصور في الفهم، حين لجآ إلى ترديد «القناعة السائدة الجديدة» القائلة بأن موقفهما هذا نابعٌ فقط من كون رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو هو «المشكلة»، وأنهما لا يرغبان في مكافأته.

والدرس الجليّ الذي تخلص إليه كلتا المقابلتين هو الدور المهم الذي تؤديه وسائل الإعلام الجديدة التي تتمحور حول شخصيات إعلامية بارزة؛ فهؤلاء الإعلاميون يلمّون جيداً بالقضايا التي يتناولونها، ولا يلتزمون بأسئلة مُعدّة مسبقاً (نصوص جاهزة)، كما أنهم لا يخشون تحدي النخب.

○ رئيس المعهد العربي الأمريكي

أين مجلس السلام من توفير إيواء كريم لنازحي غزة؟

بقلم:
محمد مصطفى شاهين ○

يقترب الشتاء من غزة، بينما تقترب معه لحظة أخرى من امتحان الضمير الإنساني، فهناك في تلك البقعة المحاصرة ما يقارب مليونًا وسبعمائة ألف نازح، لا ينتظرون موسمًا جديدًا من المطر، وإنما ينتظرون سقفًا يحمي أطفالهم من البرد، ومأوى يحفظ أجسادهم من الماء والوحل، وخيمة لا تنهار فوق رؤوسهم حين تهب الرياح.

هؤلاء ليسوا أرقامًا في تقارير المنظمات الدولية، ولا كتلة بشرية تنتظر دورها في طوابير المساعدات، إنهم بشر لهم أسماء ووجوه وأطفال وأمهات وشيوخ وأحلام صغيرة، كان أكبرها أن يعيشوا في بيت آمن، ثم صار أقصى ما يرجونه أن تنجو خيمتهم من ليلة ماطرة.

لقد تحولت الخيمة في غزة من رمز مؤقت للنزوح إلى عنوان دائم للمأساة، خيام أنهكتها الشمس، ومزقتها الرياح، وتآكلت أقمشتها، وتسللت إليها الرطوبة، ولم تعد قادرة على مواجهة شتاء جديد، وفي داخل كل خيمة قصة إنسان اقتُلع من منزله، ودُفع إلى مكان آخر، ثم إلى مكان ثالث، حتى فقد معنى الاستقرار نفسه. إن الأسرة التي تنام فوق الأرض، وتستيقظ على البلل، وتضع ما تبقى من أمتعتها في أكياس بلاستيكية، لا تحتاج إلى خطب عن الإنسانية بقدر ما تحتاج إلى إنسانية حقيقية تصل إليها قبل أن تصل العاصفة.

ماذا يعني أن يتحدث العالم عن السلام، بينما ينام طفل فلسطيني تحت قطعة قماش ممزقة، ينتظر المطر؟ ماذا يعني أن تتحدث المؤسسات الدولية عن القانون والكرامة الإنسانية، بينما لا يجد النازح مكانًا جافًا يضع فيه جسده المنهك؟ ماذا تعني كل المواثيق الدولية إذا كان الإنسان الذي يفترض أن تحميه هذه المواثيق عاجزًا عن حماية أطفاله من برد الشتاء؟ إن القانون الإنساني الدولي لم يوضع ليكون نصًا محفوظًا في الوثائق، وإنما ليحمي الإنسان عندما يصبح أكثر ضعفًا، وليفرض على الأطراف والمجتمع الدولي مسؤوليات واضحة تجاه المدنيين الذين اقتلعتهم الحرب من مساكنهم، وأفقدتهم مقومات الحياة.

وهنا يصبح السؤال أكثر قسوة: أين مجلس السلام؟ إن كان السلام اسمًا لمشروع سياسي جديد، فإن غزة هي المكان الذي يجب أن يخضع فيه هذا المشروع لأول امتحان حقيقي؛ لأن السلام الذي لا يفتح المعابر أمام أدوات الإيواء، ولا يؤمن خيامًا صالحة للسكن، ولا يحمي الأطفال من الشتاء، يتحول إلى مجرد مصطلح سياسي بلا مضمون.

إن السلام الحقيقي يبدأ حين يشعر الإنسان الضعيف أن العالم يراه ويسمعه ويحميه، لا حين تتكاثر البيانات في العواصم وقاعات المؤتمرات.

إن مليونًا وسبعمائة ألف نازح لا يحتاجون إلى وعد مؤجل، ولا إلى تعاطف موسمي، إنهم يحتاجون الآن إلى خطة إيواء عاجلة وشاملة تتناسب مع حجم الكارثة، وإلى إدخال الخيام المقاومة للظروف الجوية، ومواد العزل، والأغطية، والفرش، ووسائل التدفئة الآمنة، وأدوات إصلاح الخيام، ومستلزمات تصريف مياه الأمطار والصرف الصحي، وكل ما يجعل المأوى الإنساني مأوى بالمعنى الحقيقي للكلمة. فالكرامة ليست طعامًا فقط، والنجاة ليست دواءً فقط، والحق في الحياة لا يكتمل إذا كان الإنسان مهددًا بالموت من البرد والمياه والأمراض التي تتكاثر في بيئة النزوح.

تخيلوا للحظة أنكم تنامون مع أطفالكم في خيمة مهترئة، وأن المطر بدأ يتساقط، وأن المياه أخذت طريقها إلى فراشكم، وأن الطفل يرتجف من البرد، وأن الأم تحاول أن تمنع الماء بقطعة قماش، وأن الأب يبحث في الظلام عن أي شيء يسد به فتحة في سقف الخيمة. تخيلوا أن كل ما تملكونه موجود تحت أقدامكم، وأنكم لا تستطيعون العودة إلى بيت؛ لأنه لم يعد موجودًا أصلًا، ثم تخيلوا أن العالم كله يعرف ذلك، ومع ذلك لا يصل إليكم ما تحتاجونه للبقاء، فهل يمكن بعد ذلك أن نتحدث عن الضمير الإنساني بصورته التي نعرفها؟

إن مأساة غزة لا تختبر قدرة المنظمات الإنسانية وحدها، وإنما تختبر المعنى الحقيقي للإنسانية في هذا العصر، وتختبر صدق النظام الدولي في حماية المدنيين، وتختبر قيمة القانون حين يتحول النص إلى مسؤولية، وتختبر مجلس السلام في أول واجباته. فليس المطلوب أن ينتظر النازح نهاية الشتاء حتى تتحرك السياسة، وليس مقبولًا أن تصبح حماية المدنيين مسألة تفاوضية، بينما المطر لا يتفاوض، والبرد لا يتفاوض، والمرض لا يتفاوض، والموت لا ينتظر توقيع اتفاق.

غزة اليوم تضع العالم أمام مرآته، فمن يملك القدرة على إدخال أدوات الإيواء ثم يتأخر عنها يعرف حجم المسؤولية التي يحملها، ومن يستطيع أن يفتح الطريق أمام المساعدات ثم يترك الخيام تنهار، يعرف أن الصمت في مثل هذه الظروف ليس حيادًا، إنما هو عجز أخلاقي عن حماية إنسان يعرف الجميع أنه في حاجة إلى الحماية.

يا مجلس السلام، إن أردتم للسلام أن يكون اسمًا له معنى، فابدؤوا من خيمة النازح قبل طاولة المفاوضات، ابدؤوا من الطفل قبل البيانات، ومن الأم قبل المؤتمرات، ومن الإنسان قبل السياسة. افتحوا الطريق أمام الإيواء الكريم، وأدخلوا ما يكفي لحماية مليون وسبعمائة ألف نازح من شتاء قاس، فإنقاذ الإنسان ليس تفصيلًا في مشروع السلام، بل هو جوهر السلام نفسه.

○ كاتب من فلسطين